ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Galeb Ali Hassan

General Directorate Al - Rusafa the Second

Email:
Galebhassan70@gmail.com
07737894438

Keywords:

melody (allahn) , linguistic development, Mohamed Eid, level of performance

A r t i c l e i n f o

Article history:
Received 1.AUG.2023
Accepted 9.SEP.2023
Published 20.NOV.2023

The Melody (allahn) at Modernizers Scholars of Language. Dr. Muhammad Eid as a model

A B S T R A C T

Many scholars see that the situation of the ancient linguists regarding the manifestations of melody (allahn) was a hard line , as they considered every change that occurred in the language that exceeded the limits drawn by the pre-Islamic Arabs, and the Arabs of the first and second centuries AH (qurun hijria), as a kind of error and deviation that must be discarded and neglected, and their argument for that is that the new manifestations violate the rules and the texts that were recorded in the language books, and which were approved by the reliable scholars, in contrast, the modern linguists see that the linguistic community includes a specific linguistic system for all of its members is the supreme authority that has the right to judge the words with correctness or error, the modern linguists look at the error and the melody (allahn) that occurred from the ancients as a development and change in the language. Therefore, Muhammad Eid sees the language and what is wrong with it by describing it as a social phenomenon that is subject to development, this development does not happen randomly, but according to linguistic laws, putting the issue of melody (allahn) in a research atmosphere characterized by uniqueness and novelty. Especially, what is related to the books that were written in (the tune of the common people), standing on them, trying to revive them, and studying the efforts of scholars in them. He wrote down a list of the names of the scholars who wrote in melody (allahn) and correcting the tongue, which reached thirty authors, It has found that these books look at melody from the point of view of error and deviation from the correct path, which proper pronunciation should be, and they did not take into account the power of use and the oppression of development.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol53.Iss1.3655

اللحن عند علماء اللغة المحدثين د. محمد عيد إنموذجا

م.د. غالب علي حسن
المديرية العامة لتربية الرصافة الثانية / بغداد

الملخص:

يرى كثير من الدارسين أن موقف اللغويّين القدماءِ من مظاهر اللحن كان مُتشدِّداً، إذ إنَّهم عدُّوا كلَّ تغييرٍ يطرأ على اللغةِ يتجاوزُ الحدودَ التي رسمها عربُ الجاهليّة، وعربُ القرنين الأوَّل والثاني الهجريين ضرباً من الخطأ والانحراف يجبُ طرحُه وإهماله، وحجّتهم في ذلك أنَّ المظاهر الجديدة تُخالفُ القواعدَ والنصوصَ التي سُجِّلتْ في كُتُبِ اللغة، والتي ارتضاها العلماءُ الموثوقُ بهم، في قبال ذلك، يرى المحدثون من اللغويّين، أنَّ المجتمعَ اللغويَّ الذي يشتمل على منظومة لغوية معينة لمجموع أفراده يُعد السلطةَ العُليا التي من حقِّها الحكم على الألفاظِ بالصحَّةِ أو الخطأ، إن علماء اللغة المحدثين ينظرون للخطأ واللحن الذي وقع من القدماء تطورا وتغيرا في اللغة لذا، يرى محمد عيد اللغة وما يعتريها بوصفها ظاهرة اجتماعية وهي في عرضة للتطور وإن هذا التطوُّر لا يحدثُ بصورة عشوائيَّة، بل تبعا لقوانين لغويّة، واضعا مسألة اللحن في مناخ بحث يتسم بالفرادة والجدة، لاسيما وما يتصل بالكتب التي أُلِّفتْ في (لحن العامّة)، والوقوف عليها، ومحاولة إحيائها، ودراسة جهود العلماء فيها. فقد دوّن قائمةٍ بأسماءِ العلماء الذين ألّفوا في اللحن وتقويم اللسان، وصلتْ إلى ثلاثين مُؤلَّفاً، وقد وجد أنَّ هذه الكتب تنظر إلى اللحنِ من جهةِ الخطأ، والانحرافِ عن الطريقِ الصحيح، الذي ينبغي أنْ يكون عليه النطقُ السليم، ولم يأخذوا بالحسبانِ قوَّةَ الاستعمالِ وقهر التطوُّر.

الكلمات المفتاحية: اللحن ، التطور اللغوي ، محمد عيد ، مستوى الأداء.

المقدمة:

للحن في اللغة معان متعددة ذكرها أصحاب المعجمات، وأشار إليها علماءُ العربيّةِ ودارسوها، فابنُ برّيّ(ت٥٨٢ هـ) قد جمع هذه المعاني بقوله:((للحنِ ستةُ معانٍ: الخطأ في الإعراب، واللغة، والغناء، والفطنة، والتعريض، والمعنى)) (ابن منظور، ١٢-٣٨١ :١٩٥٥)، وما يعنينا من هذه المعاني في هذا البحث هو الخطأ في الإعراب واللغة، الذي عرّفه المحدثون بأنَّه: ((خروجُ الكلامِ الفصيحِ عن مجرى الصحةِ في بنيةِ الكلامِ أو تركيبه أو إعرابه، بفعلِ الاستعمالِ الذي يشيعُ أوّلاً بين العامَّة من الناس، ويتسرَّبُ بعد ذلك إلى لغة الخاصّة)) (مطر ،١٩٨٠: ١٩)، وهذا هو المعنى الذي قصده كلُّ من ألَّف في اللحن قديماً وحديثا. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن دلالةُ لفظةِ (اللحن) على هذا المعنى متأخِّرةٌ سبقتها دلالاتٌ أُخر، فابنُ فارس(ت٣٩٥هـ) يقول: ((فأمّا اللحْنُ بسكونِ الحاءِ فإمالةُ الكلامِ عن جهته الصحيحة في العربيّة. يقال: لَحَنَ لَحْنَاً، وهذا عندنا من الكلامِ المُولَّد، لأنَّ اللحنَ مُحْدَثٌ لم يكنْ في العربِ العاربة، الذين تكلَّموا بطباعهم السليمة)) (ابن فارس ، ١٩٧٢: ٠-٢٣٩) . فدلالةُ (اللحن) وإن كانت لا تختلفُ عن دلالةِ الخطأ، إلا أن فارقاً يسيراً بين الاثنين ، ذكره أبو هلال العسكريّ بقوله :((هو صرفُك الكلامَ عن جهته ثم صار اسماً لازماً لمخالفةِ الإعراب، والخطأ إصابةُ خلافِ ما يُقصَد، وقد يكونُ في القولِ والفعل، واللحنُ لا يكونُ إلا في القول، تقول: لَحَنَ في كلامِه، ولا يُقالُ: لَحَنَ في فعلِه، كما يُقالُ: أخطأ في فعله إلا على استعارةٍ بعيدة)) (العسكري ، ٢٠٠٣: ٤٠) ، إن دلالةُ اللحنِ خاصّة، تقتصر على الكلام، أمّا الخطأ، فدلالتُه عامَّة تشملُ الكلامَ وغيره. وحدوث الخطأ في اللغةِ لا يقتصرُ على زمنٍ دون آخر، ولا على بيئةٍ دون سواها، ((فاللحنُ ظاهرةٌ عامّةٌ تُصيبُ جميعَ اللغات، وفي جميعِ العصور)) (جاسم ،٢٠٠٣:٩٠).

إن موقفُ اللغويّين القدماءِ من مظاهر اللحن كان مُتشدِّداً، إذ إنَّهم عدُّوا كلَّ تغييرٍ يطرأ على اللغةِ يتجاوزُ الحدودَ التي رسمها عربُ الجاهليّة، وعربُ القرنين الأوّل والثاني الهجريين ضرباً من الخطأ والانحراف يجبُ طرحُه وإهماله، وحجّتهم في ذلك أنَّ المظاهر الجديدة تُخالفُ القواعدَ والنصوصَ التي سُجِّلتْ في كُتُبِ اللغة، والتي ارتضاها العلماءُ الموثوقُ بهم. (العزاوي ،٢٠٠١: ٢-١٢٨).

أمّا الباحثون المحدثون فقد اختلفوا بشأن نشأةُ اللحنِ وبدايته في الكلامِ العربيّ، إذ يمكن إجمالها بقولين:

الأوّل: إنَّ اللحنَ قديمٌ، ترجِع بدايته إلى العصرِ الجاهليّ، وإلى هذا ذهب تمّام حسّان بقوله: ((لا جدالَ في أنَّ اللحنَ كان معروفاً قبل الإسلام، في وقت ظهوره، وأنَّه كان جائزاً حتى من سادةِ العربِ وأشرافهم))) حسان ، د.ت :٧٩).

ويرى حسن عون: إنَّ اللحنَ ((وُجِدَ في اللغة العربيّة قبل الإسلام، وإنْ لم يكنْ من طبيعةِ العربِ الخُلّص أنْ يرتكبوه، فإنَّه بَقِيَ محصوراً فيما بين هذه الطبقةِ الضعيفةِ من المجتمع)) .(عون ،١٩٥٢: ١٨٥) ، و ويقصد بالطبقة الضعيفة في المجتمع الأعاجمَ الذين كانوا بمكةَ قبل الإسلام.(الصالح ، ١٩٧٨: ١٨٥).

الثاني: إنَّ ظهورَ اللحن في الكلام، وشيوعه في البيئةِ العربيّةِ كان في عصرِ صدرِ الإسلام؛ لأنَّ المجتمعَ العربيَّ قبل الإسلام كان فصيحاً بليغا، لا تشوب كلامَه شائبةٌ، ويتكلَّمُ اللغةَ بالسليقة، من دون أنْ يشعرَ بقواعدها، وأنَّ هذه الفطرة والسليقة لم تتأثر لحين اختلاطهم بغيرِ العرب، إذ قال الرافعيّ: إنَّ((اللحنَ لم يكنْ في الجاهليّةِ البتّة، وكلُّ ما كان في بعض القبائل من خورِ وانحرافِ الألسنة فإنَّما هو لغاتٌ لا أكثر).)الرافعي ،١٩٧٤: ١-٢٣٧) ، ويقول يوهان فك: ((وأغلبُ الظنِّ أنَّه استُعْمِلَ لأوّل مرّةٍ بهذا المعنى عندما تنبّه العربُ بعد اختلاطهم بالأعاجمِ إلى فرقٍ ما بين التعبيرِ الصحيح والتعبيرِ الملحون)). (الدواخلي،٢٤٥: د.ت) ، وقد استبعد صبحي الصالح أنْ يكونَ اللحنُ قد عُرِفَ عند العرب، قبل اختلاطهم بالأعاجم، وقد سعى إلى تحديدِ دلالةِ كلمة(لحن) فنص على أنَّ اللحنَ لم يُعْرَفْ ((في دنيا العرب بمعنى مخالفةِ التعبيرِ الصحيحِ قبل أنْ يختلطَ هؤلاء بالأعاجم، ويأخذوا بالتفرقةِ بين فصاحةِ المنطق، وفساد اللسان)) (قدور،١٩٩٦: ٥٣) ونتيجة لشيوع اللحن في المجتمع العربي ظهرت حركةٍ قويّةٍ في التأليف اللغويّ، في أواخر القرنِ الثاني الهجريّ، واستمرَّت لقرونٍ لاحقة، عُرِفَتْ بـ (حركة تنقية اللغة)، كانت تهدف إلى المحافظةِ على اللغة العربيّة، وتنقيتها، وإرشاد الناطقين بها الى الاستعمال الصائب))(العزواي، ١٩٧٥: ٣٤٠) (الصالح ، ١٩٧٨: ١٩٤)، وقد نتج عن هذه الحركةُ ظهور مؤلَّفاتٍ مُتعدِّدة، سعتْ إلى معالجةِ ظاهرةِ اللحن، التي اتَّسعتْ دائرتُها في العصورِ اللاحقةِ لعصورِ الاحتجاج. (العزاوي ، ٢٠٠١: ١٥٩)،هذه المؤلَّفات عرفت بكُتُبِ (لحن العامّة)، وهي مؤلَّفاتٌ سعت ((إلى إصلاحِ ما يقعُ فيه الناسُ من خطأ، أو ردّهم إلى المعايير الثابتة، التي تُمثِّلُ أساليبَ العرب ضمن إطارٍ زمنيٍّ لا يتجاوزُ عصرَ الاحتجاج، ولا يتخطَّى بيئاتٍ مكانيّةً مُحدّدة، تُمثِّلها قبائلُ مُعيَّنةٌ هي أقربُ القبائلِ إلى تمثيلِ لغة القرآن)) .(عمايرة ،٢٠٠٢: ٢٤) (العزاوي، ٢٠٠١: ١٥٩)،إن مؤلِّفي كُتُب (لحن العامّة) قد درجوا على أنْ يجمعوا ((طائفة من الألفاظ التي يُخطئ فيها الناسُ في زمانهم، وفي القطرِ الذي يعيشون فيه، ويبرهنوا على خطئها، ويُبيّنوا الصوابَ الذي يجبُ أنْ يحلّ محلَّها في الاستعمال)). (العزاوي، ١٩٧٥: ٢٤٠) ،(العزاوي ، ٢٠٠١: ٤٣).

وقد حاول بعض المحدثين حصرَ الكُتُب التي أُلِّفتْ في (لحن العامّة)، والوقوف عليها، ومحاولة إحيائها، من طريق تحقيقها ونشرها، ودراسة جهود العلماء فيها.

منهم محمد عيد إذ دوّن قائمةٍ بأسماءِ العلماء الذين ألّفوا في اللحن وتقويم اللسان، وصلتْ إلى ثلاثين مُؤلَّفاً، وقد وجد أنَّ هذه الكتب تنظر الى اللحنِ من جهةِ الخطأ، والانحرافِ عن الطريقِ الصحيح، الذي ينبغي أنْ يكون عليه النطقُ السليم، ولم يأخذوا بالحسبانِ قوّةَ الاستعمالِ وقهر التطوُّر.(عيد، ١٩٨٠: ٣٧) وقد أخذ محمد عيد على هذه الكُتُب بعض الملاحظ النقديّةٌ من أهمها:

أولا: أنَّ المؤلفين اعتمدوا على جهودِ السابقين في مؤلفاتهم، فكانوا ينقلون أقوالهم، من دون الإشارةِ إلى أسماءِ الكُتُب التي أخذوا عنها مادّتهم اللغويّة، وأنَّ أبا بكر الزُّبيديّ في كتابه (لحن العوام) كان مثالاً لهذا اللون من المؤلِّفين (عيد ، ١٩٨٠: ٣٥)، إذ لم يحاول استقراء اللغةِ التي عاصرها، وإنَّما اعتمد على جهودِ من سبقه من العلماء. وما ذهب إليه محمد عيد بشأن الزبيدي لم يكن صائبا، فعبد العزيز مطر قد استقرأ آراء الزبيدي في كتابه (لحن العامة) ووجد أنه كان((عالماً واضحَ الشخصيَّةِ مستقلّ الرأي، واسعَ الرواية، يناقشُ ما يرويه، ويقفُ منه موقفاً مدعوماً بالحجَّة)). (مطر، ١٩٨١، ١١٧)

وإلى مثل هذا الرأي ذهب الدكتور نعمة رحيم العزَّاويّ بقوله: ((كان أصيلاً في مادّته اللغويّة، وأنَّه جمعها من أفواهِ معاصريه، ولم ينقلها من كُتُبِ اللغويّين الذين سبقوه في التأليفِ في موضوعِ اللحن)). (الزبيدي ، ١٩٧٤: ٣٥٢)

ثانياً: انتقد محمد عيد اقتصارَ كُتُب (لحن العامّة) على ذكرِ ما أصاب المُفرداتِ من تغييرٍ في الصوتِ أو الصيغةِ أو الدلالة، وإهمالها الإشارة إلى ما أصاب الجملَ والعباراتِ من خللٍ ((فكُتُبُ اللحنِ لا تمدّنا بغيرِ مفرداتٍ مُحرَّفة، وكلمات مفسدة، ولذلك لا نستطيع أن نفيدَ منها في الوقوفِ على التطوُّرِ اللغويّ الذي طرأ على الجملِ والتراكيب)). (الزبيدي ، ١٩٧٤: ٣٤١).

ثالثاً: أن هذه الكتب تتجه غالبا بعد مقدمة قصيرة إلى الحديثِ عن (اللحن) وإلى إيرادِ الكلمات مع بيانِ خطئها أو صحتها في غالب الأحيان .(عيد ، ١٩٨١: ٣٦)

رابعاً: لجوء كتب (لحن العامة) إلى الحكم على الألفاظ بالصحة أو الخطأ دون الوقوف على ما يطرأ على المفردات عند الاستعمال من تغيير جعلها تفتقر إلى معيارٍ صوابيّ محدَّد، فمن المعروف أنَّ لكلِّ لغةٍ مستوى صوابيّاً خاصَّاً، يكونُ معياراً لغويّاً ((يرضى عن الصواب، ويرفضُ الخطأ في الاستعمال، وهو كالصوغِ القياسيّ لا يُمكنُ النظر إليه بوصفه فكرةً يستعينُ الباحثُ بوساطتها في تحديدِ الصوابِ والخطأ اللغويّين، وإنَّما هو مقياسٌ اجتماعيّ، يفرضه المجتمعُ اللغويُّ على الأفراد، ويرجِع الأفرادُ إليه عند الاحتكامِ في الاستعمال. والمستوى الصوابيُّ لا يُوجَدُ في اللغة فحسب، وإنَّما يُوجَدُ في كلِّ شؤون الثقافةِ بالمعنى الأعمّ)). (حسان، د.ت: ٦٧) إن تحديدِ المستوى الصوابيّ، موضع خلاف عند اللغويين العرب ، فبعضهم كان مُتشدِّداً يسعى إلى الحصولِ على الفصيح، ويرفضُ ما سواه، وبعضهم كان يقبلُ كلَّ شيءٍ ويُجيزُه، ولايتردّدُ في قبوله، فالأصمعي معروف بتشدده، وتحرّيه الأفصح ،(الانباري ، د.ت : ٢٢-٢٤) في حين كان أبو زيد (ت٢١٥هـ) يتسع في اللغات فقد قال عنه الزُّبيديّ: إنَّه كان((يتَّسع في اللغات...وكلُّ ما اتسع في اللغات فهو شرّ)) .(السيوطي ، د.ت : ١-٢٣٣).

أمَّا أصحابُ كُتُب(لحن العامَّة) فإنَّهم لم يتفقوا على معيارٍ صوابيّ واحد((يقوم على أساسه الحكم بالصحة، أو الخطأ، فمنهم من سلك مسلكاً مُتشدِّداً بالوقوف عندما سُمِعَ، وعدم الاعتراف إلا بالأفصح، وما عداه فهو خطأ)) .(الزبيدي، ١٩٧٤: ١٨٢) ، ومنهم من جوّز النطقَ بالنادرِ والرديء، ما دام ذلك وارداً في لهجةٍ من اللهجات، وقد استندوا في ذلك إلى قول ابن جني، الذي يرى فيه أنَّ الناطق ((على قياس لغةٍ من لغات العرب مصيبٌ غيرُ مخطئ، وإنْ كان غيرُ ما جاء به خيراً منه))). (مطر،١٩٨١، ٥٢) فأبو بكر الزُّبيديّ كان مُتشدِّداً، إذ خطأ بني أسد في قولهم (سكرانة) فقال:"ذكر يعقوب أن ذلك ضعيف رديء". وقال أبو حاتم: "لبني أسد مناكير لا يؤخذ بها")) (مطر، ١٩٨٠: ٥٧) وردَّ عليه ابنُ هشام اللخميّ قائلاً: ((فاذا قالها قومٌ من بني أسد فكيف تلحنُ بها العامّة، وإنْ كانت لغةً ضعيفةً، وهم قد نطقوا بها كما نطقتْ بعضُ قبائل العرب)) . (ابن جني ، ١٩٦٧: ٢-١٢) (الزبيدي، ١٩٧٤: ٤٠٦)، وفي شرح التسهيل لأبي حيان:((كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه)) (ابن جني ،٢-١٢: ١٩٦٧).

وقد أشتهر عن بني أسد أنهم يقولون: (سكرانة)، ولا يقولون: (سكرى)، لكنَّه مع ذلك خطَّأهم، ولم يأخذْ بكلامهم، وعلى العكس من أبي بكر الزُّبيديّ، نجد ابنَ هشام اللخميّ أكثرَ تسامحاً، إذ أجاز الكثيرَ من اللغات، فلم يكدْ يُلحِّن أحداً، حتى قال: ((ومن اتَّسع في كلام العرب ولغاتها لم يكدْ يُلّحن أحدا)). (الزبيدي ، ١٩٦٤: ١٦٢) ويتّضح لنا اختلافُ أصحابِ كُتُبِ (لحن العامّة) في المستوى الصوابيّ في قول ابن السيد البطليوسيّ : ((وقد أنكر الأصمعيُّ أشياءَ كثيرةً كلُّها صحيحٌ، فلا وجهَ لإدخالها في لحن العامَّة من أجل إنكار الأصمعيّ لها)). (مطر(58 :1981 ,

إن المستوى الصوابيُّ بين مؤلّفي كُتُبِ (لحن العامّة) ، لم يكن متفقا عليه وأنَّ نقاشهم كان يدورُ حول الأساسِ الذي لم يتَّفقوا عليه أصلا (السيوطي ،١٩٩٧: ٣٨٨).

في حين يرى المحدثون من اللغويّين، أنَّ المجتمعَ اللغويَّ الذي يشتمل على منظومة لغوية معينة لمجموع أفراده يُعد السلطةَ العُليا التي من حقِّها الحكم على الألفاظِ بالصحَّةِ أو الخطأ) .مطر، ١٩٨١ : ٥٨) (الزبيدي ،١٩٧٤: ٤٠٧)، ويرى محمد عيد أنَّ المستوى الصوابيَّ الذي ينبغي أن يراعيَه الأفرادُ في كلامهم، يرجِع إلى الاستعمالِ الذي يشيعُ في البيئةِ اللغويّةِ التي يعيشون فيها، لا إلى قواعدَ مُعيَّنةٍ أو جهاتٍ مُتخصِّصة. (البطليوسي،١٩٨١: ٢-٢٢٢)، فالاستعمالُ الذي يتبنّاه المجتمعُ اللغويُّ هو الفيصلُ في تحديدِ الصوابِ والخطأ اللغويّين، يقول فندريس: ((كأن هناك عقداً ضمنيَّاً أقامته الطبيعةُ بين أفرادِ الجماعةِ الواحدة ليحافظوا على اللغةِ في الصورةِ التي توجّهها القاعدة، وكثيراً ما ترجِع هذه القاعدةُ إلى الاستعمال، ولكنَّ الاستعمالَ غيرُ التحكُّم، بل هو ضدُّه على خطٍ مستقيم؛ لأنَّ الاستعمالَ خاضعٌ لمصلحةِ الجماعة، وهي هنا حاجتها إلى أنْ تكونَ مفهومة)).(مطر ، ١٩٨١: ٦١) ومن استقراء آراء معظم المحدثين نجد أنهم يرون أن اللحن جاء نتيجةَ اختلاطِ العربِ بالأعاجم بعد الفتوحات الإسلاميّة، وأنه لم يكن موجوداً في عصرِ ما قبل الإسلام وقد اعتمدوا في ذلك على ما ذكره المتقدمون، فأبو الطيّب اللغويّ(ت ٣٥١هـ) يقول: ((إنَّ اللحنَ ظهرَ في كلامِ الموالي والمُتعرّبين من عهد النبيّ- صلى الله عليه وسلّم- فقد روّينا أنَّ رجلاً لحن بحضرته، فقال: أرشدوا أخاكم)). (جسبرسن، د.ت :١٢٤) ويرى أبو بكر الزُّبيديّ(ت٣٧٩هـ) أنَّ العرب لم تزلْ ((تنطق على سجيتها في صدرِ إسلامها، وماضي جاهليَّتها، حتى أظهر اللهُ الإسلامَ على سائر الأديان، فدخل الناسُ أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعتِ الألسنةُ المُتفرّقة، واللغاتُ المختلفة، ففشا الفسادُ في اللغة العربيّة)).(عيد ، د.ت: ٢٥) وقد شكك إبراهيم أنيس في صحة الروايات التأريخيّةِ التي تُثبتُ وقوعَ اللحن من العرب، وعمدَ إلى الطعنِ فيها؛ ليخرجَ من ذلك إلى ما يُؤيّد رأيه المعروفَ في الإعراب، بأنَّها قصةٌ((استُمِدَّتْ خيوطُها من ظواهرَ لغويّةٍ متناثرةٍ بين قبائلِ الجزيرةِ العربيّة، ثم حِيكَتْ وتمَّ نسجُها، حياكةً مُحكمةً في أواخر القرنِ الأوّلِ الهجريّ أو أوائل الثاني، على يدِ قومٍ من صُنَّاعِ الكلام...)) . (الطيب ، د.ت: ٥) وعليه أن هذه الرواياتِ أمام احتمالين، إمَّا الصحةُ، وهذا يعني، أنَّ الإعرابَ لم يكن مظهراً من مظاهرِ السليقةِ اللغويّة، أو الوضع، وذلك يؤكد أنَّ الإعرابَ هو من عملِ النحاةِ أنفسِهم، ليُؤكِّدوا قيمةَ معرفتهم وحدَهم بالإعراب، وينالوا الحظوةَ عند الخلفاء.(الزبيدي ،١٩٧٤: ١).

إن محاولات التشكيك بصحة الروايات التاريخية التي تؤكد وقوع اللحن رفضها محمد عيد، ويرى أنَّ الأقربَ إلى الصواب هو صحتها؛ لأن اللحنَ قد حدث من العربِ فعلاً، وفي ذلك دليلٌ على نفي السليقةِ التي اعتقد بها القدماء وبأنها ترتبطُ بالجنسِ والوراثة، وهذا الأمرٌ يرفضه علمُ اللغة الحديث، الذي فسّر السليقةَ بأنَّها اكتسابُ اللغة من طريق الدربةِ والمران، وأنَّها مرحلة من مراحلِ إتقان اللغة، بحيث لا يكادُ يشعرُ المُتكلِّمُ بخصائصِ كلامه، من حيثُ الأصواتُ، وأبنيةُ الألفاظ، وتراكيبُ الجمل. (عيد ،١٩٨٠: ٤٨).

إن اللغات المشتركة تشتمل على مستويين من مستويات الأداء اللغوي في أي عصر من العصور، مستوى اللغة الفصحى، وهو مستوى عام يلجأ إليه المتكلم في مواقف محدودة، ومستوى اللهجة المحلية الخاصة ببيئة معينة وهي التي تكتسب من

المحيط اللغوي الذي يعيش فيه الأفراد، ففي الأول وبسبب عدم استعمال اللغة المشتركة –الفصحى– التي يتم تعلمها من طريق المدارس فإن الخطأ في الكلام يكون من دون شعور المتكلم بذلك، أما الثاني –اللهجة المحلية– فهي لغة لا يخطأ فيها المتكلم، وإذا أخطا بادر إلى تصويب لسانه وشعر بالخطأ الذي صدر عنه؛ لأنه دائما ما يلجأ إلى اللغة التي اكتسبها من محيطه اللغوي، وعليه فأن العصر الجاهلي كغيره من العصور والخطأ أمرٌ واردٌ في جميع اللغات، ولا يقتصرُ على لغةٍ دون أخرى. (التواب، ١٩٨٣: ٩١) (انيس، ١٩٦٦: ١٨٩).

فالطفلُ في العصر الجاهلي كان ينشأ على اكتسابِ اللغة من أسرته وقبيلته، وهذه اللغة المحليّة الخاصّةُ بقبيلته التي لا يمكن أنْ يُخطئ العربيُّ فيها من دون شعورٍ، في حين كان العربُ يُخطئون في اللغة الفصحى؛ لأنَّهم تعلّموها بعد اكتسابهم لغتَهم؛ ولأنَّه لم يُتقنها إلا الخاصةُ من العرب، فلم تكن في متناول جمهور الناس وإنْ كانت مفهومةً لعامّة العرب، فقد كانوا يستمعون إليها في شوقٍ وإعجاب، وكانوا يرفعون من يجيدها إلى المستوى المرموق بين أهلِه وعشيرته.(انيس ،١٩٦٠: ٩).

وقف د. محمد عيد، على آراءِ القدماء في اللحن، وسعى إلى استقرائها؛ وذلك بعودته إلى المصادرُ العربيَّةُ القديمةُ في النحو والصرف والمعجمات وما ضمته من معلوماتٍ بشأن ظاهرة اللحن. وقد اختلفتْ نظرتُه إلى اللحنِ عن نظرة القدماء؛ إذ عمد إلى دراسته في ضوءِ قوانين التطوُّر اللغويّ، التي قال بها المحدثون من اللغويّين، والتي ((تصفُ هذا التغيرَ في ضوءِ استعمال الناطقين له فقط، فلا تربطُ بينه وبين مستوىً لغويٍّ آخرَ لعصر مضى أو عصر لاحق، كي تُرتِّبَ على ذلك حكماً عليه بالتقدُّمِ أو التقهقر، كما لا تنظرُ إليه في ضوءِ معايير جاهزة، فما وافقها كان صواباً، وما خالفها كان خطأً ولحناً؛ لأنَّ مرجِعَ ذلك كلِّه هو الجماعةُ اللغويَّةُ التي تستعملُ اللغةَ، وما ترتضيه أو ترفضه من معاني الألفاظ وصيغها، وطريقة تأليفها)) .(عيد ،١٩٨٠: ٤٥) (بشر ، ١٩٦٩: ٢–١٢٨).

وفيما يخص البدايات الفعلية والوصول إلى حقيقة حاسمة ودقيقةٍ تُوضِّح لنا بدايةَ اللحن في الكلام العربيّ فإن محمد عيد، يُقرُّ بصعوبةِ الأرخنة لظاهرةِ اللحنِ متى وُجِدتْ، ويعزو ذلك إلى ندرة المعلومات التي وصلتنا عن العصر الجاهليّ؛ لأنَّ كثيراً من شؤون الجاهليّة فقدت أو ((تكاد تكون مطموسةً تماماً، أو على الأقلِّ غير مؤكَّدة، إذ تعتمد على الظنِّ الغالب لا الأدلّة المقنعة)) . (عيد ،١٩٨٠: ٢٤).

وعلى الرغم من صعوبة الأرخنة لظاهرة اللحن إلا أنه يؤكِّد حقيقةً لغويةً مفادُها، أنَّ العربيّةَ في العصر الجاهليّ عرفت مستويين من مستويات الأداء اللغويّ، شأنُها في ذلك شأنُ جميعِ اللغات في العالم، وهذان المستويان هما:

الأوّل: مستوى اللغة العامّة المشتركة، هو مستوىً عامٌّ يلجأ إليه المتكلّمون في مواقف الجدّ ، ولا يخصُّ قوماً بأعينهم.

الثاني: مستوى اللهجة المحليّة الخاصّة ببيئةٍ لغويّةٍ مُعيّنة، وهو المستوى المستعمل في الأداء اليوميّ المحليّ الذي يمارسه المُتكلِّمُ في ظلِّ حاجةٍ اجتماعيّةٍ خاصّة.(عيد ،٢٤، ١٩٨٠–٢٥) (حسان ، د.ت: ١٨٥) وحقيقة وجود مستويين من مستويات الأداء اللغويّة ((أمرٌ تُحتِّمه الضرورةُ الاجتماعيّة، وما تقتضيه من تفاوت مستوى الاستعمال وحاجاته تبعاً لحاجةِ الناطقين أنفسِهم، لاستخدامِ اللغة في المواقف العامّة والراقية أو مواقف الحياة العادية والخاصّة ببيئةٍ محليّة)) .(عيد ، د.ت: ٧٩).

إن اللغةَ العامّةَ المُشتركة كما يرى محمد عيد والتي تعد وسيلةَ التفاهم بين الجميع قد وقع فيها (اللحن) في العصر الجاهليّ، ((ولو صحَّ أنَّ الاهتمامَ باللغةِ ودراستها قد تقدّم به الزمنُ إلى العصرِ الجاهليّ، لجاءتنا كُتُبٌ في (لحن العامّة) عن هذا العصر، كما حدث في القرنِ الثاني الهجريّ، وما تلاه حين نضجتِ الدراسةُ، وتنوَّعت، وكان اللحنُ أحدَ المظاهرِ التي اهتمّتْ بها)).(عيد ،٢٥: ١٩٨٠).

وقد حاول عدد من الباحثين تتبع الرواياتُ التأريخيّةُ التي وردت فيها لفظة (اللحن) لإثباتِ أنَّ اللحنَ قد عُرِفَ في عصر صدر الإسلام، عندما اختلط العربُ بغيرهم من الأُمم والأقوام، فقد نُقِلَ عن النبيّ محمد (صلى الله عليه و آله وسلم) أنَّه قال: ((أنا من قريش، ونشأتُ في بني سعدٍ فأنَّى لي اللحن)). (الزبيدي ،١٩٨٤: ٦) فإنَّ محمد عيد يرى أنَّ استخدامَ لفظة(اللحن) ((في ذلك الوقت المُبكِّر، وفهم المقصود منها حينذاك قد سبقه ما يُسوِّغ هذا الاستخدام، وذلك الفهم، وفي ذلك دلالةٌ غيرُ مباشرةٍ على حدوثِ ذلك في الجاهليّة، وإنْ لم يُنقَلْ ذلك وتُتناقل مظاهره)) (عيد ،١٩٨٠: ٢٦) (قدور ،١٩٩٦: ٥٣) ، زِدْ على ذلك أنَّ نفيَ اللحنِ عن النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلَّم) ليشيرُ إلى أنَّه كان ظاهرةً معروفةً حينئذ، وأنَّ بعضَ سادةِ العربِ كانوا يلحنون. (حسان، د.ت: ٧٩)

وقد أخذ على قول الرسول الكريم (ص) أن لفظ (اللحن) قد أدرج في الحديث من الغُيُير على النحو الذين يهابون اللحن الذين يرون أن اللحن لم يعرف في دنيا العرب بمعنى مخالفة التعبير الصحيح، قبل أن يختلط هؤلاء بالأعاجم وأن لفظ اللحن في(فأنى لي اللحن) هنا يكاد يصرخ بنفسه، ثم يضج في الصراخ ولا وجود له في هذا السياق .(بشر،١٩٦٩: ١٢٧) وقد أشار الأستاذ سعيد الأفغاني إلى توهين المحدثين لهذا الخبر المنسوب إليه (ص)، وإن رواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني. (بشر ،١٩٦٩: ٤٤).

وقد اختلف الباحثون المحدثون في تفسير وتحديد معنى كلمتي (العامة والخاصة) التي غالباً ما تَرِدُ في كب لحن العامة، فمن الباحثين من يرى أنَّ(العامَّة) عند مُصنِّفي اللحن ليسوا هم الناسَ الدهماءَ والسُقَّاط، وإنَّما هم عِليةُ القومِ من الأدباء والكُتَّاب والمثقَّفين الذين تتسرَّب إليهم أخطاءُ هؤلاء الدهماء، يقول رمضان عبد التواب: ((ليس المقصودُ من العوامِ هنا الدهماءَ وخشارةَ الناس، وإنَّما المقصودُ بهم عند هؤلاء هم المثقّفون الذين تتسرّب لغةُ التخاطبِ، والحياة اليوميّة إلى لغتهم الفصحى، في كتاباتهم أو أحاديثهم في المجالات العلميّة)) . (الزبيدي ،٤: ١٩٦٤) (مطر ،١٩٨١، ٣٥).

وهذا الذي ذهب إليه رمضان عبد التواب نصّ ورد في مقدِّمة كتاب (لحن العوام) للزُّبيديّ، فَهِمَ منه أنَّ المرادَ بالعوامِّ هم المثقفون لا عامة الناس، قال: ((والزُّبيديّ لا يقصد من العوامّ هنا الدهماءَ وسُقَّاطَ الناس، وإنَّما يقصد طبقةَ المثقفين الذين تنزلقُ ألسنتُهم في اللحن بمتابعةِ أولئك الدهماء، وهو نفسُه يقول: فألفيتُ جملاً... مما أفسدته العامَّةُ عندنا، فأحالوا لفظَه أو وضعوه غير موضعه، وتابعهم على ذلك الكثرةُ من الخاصَّةِ حتى ضمّنته الشعراءُ أشعارَهم و استعمله جلَّةُ الكُتَّاب، وعليةُ الخدمةِ في رسائلهم، وتلاقوا به في محافلهم، فرأيتُ أنْ أُنبِّهَ عليه، وأُبيِّنَ وجهَ الصواب فيه، وأن أُفرِدَ لما يحضرني منه كتاباً أحصره به، وأجمعه فيه، وأدع اجتلابَ ما أفسده دهماؤهم ممَّا عسى ألا يعزب عمَّن تمسَّك بطرفٍ من الفهم)) (الزبيدي ،١٩٦٤: ٣٤) (الاندلسي، ١٩٧٥: ٣٥٦) ، وإلى ذلك ذهب ألبير مطلق إذ يرى أنَّ((عامّةَ الناس وعوامَّهم غيرُ الخاصَّةِ من الناس، وهذا المفهومُ العامُّ للكلمةِ لم يكنِ المقصودَ في كتاب الزُّبيديّ، فلقد أحسَّ أبو بكر أنَّه لو أراد أن يُحصيَ ما يلحن فيه الدهماءُ، وسُقّاطُ الناس لاستغرقه ذلك زمناً طويلا)) . (مطلق ،١٩٦٧: ١٥٠) (الزبيدي ،١٩٦٤: ٣٤)، وأشار إلى قول أبي بكر: ((أدع اجتلاب ما أفسده دهماؤهم، وسُقّاطهم، مما عسى أن لا يعزب عمَّن تمسَّك بطرفٍ من الفهم، إذ لو استوعبنا ذلك لطال الكتاب به)) .(مطلق ، ١٩٦٧: ١٥٠) (الزبيدي ،١٩٧٥: ٣٥٦).

وهذا الفهم لمعنى العامّة رفضه محمد عيد، إذ لا معنى للتكلُّفِ بتوجيه معنى العامّةِ إلى عامّةِ العلماء، وأنَّ النصَّ الذي استند إليه أصحابُ الرأي المتقدِّم لا يُمكنُ أن يُفْهَمَ منه هذا المدلولُ لكلمةِ العامَّة، فقال :((يُقصَدُ بالعوامِّ والعامّةِ فيما اطَّلعتُ عليه من تلك الكُتب (الناس العاديون) بدليل النصِّ أحياناً على(الخواصّ والخاصّة)، ولكنَّ الذي قصدوه بالتنقيةِ هو اللغة الفصحى بعد أنْ أصبحتْ تُسْتعمَلُ في مستوىً خاصّ، وتسرَّب إليها(لحن العوام) فبقيتِ النسبةُ إلى العوام، وإنْ كان المقصودُ بذلك ما حدث في اللغةِ الفصحى التي يستعملها الخاصَّة، وبذلك نفهمُ قولَ الزُّبيديّ... فهذا مما أفسدته العامَّةُ عندنا، فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه، وتابعهم على ذلك الكثرةُ من الخاصَّة، حتى ضمَّنته الشعراءُ أشعارَهم،

واستعمله جلَّةُ الكُتَّاب وعليةُ الخدمة في رسائلهم، وتلاقوا به في محافلهم، فرأيتُ أنْ أُنبِّهَ عليه، وأُبيّنَ وجهَ الصواب فيه)) .(عيد ،١٩٨٠: ٣٥– ٣٦) (الزبيدي ، ١٩٧٥: ٣٥٧).

فمحمد عيد يرى أنَّ المعنى المراد من لفظ العامّةَ هم عامّةُ الناس، وأنَّ الذين صنفوا في كتب (لحن العامة) سعوا إلى تنقيةِ اللغةِ الفصحى من أخطاء العوام التي شاعت على الألسنة، فبقيتِ النسبةُ إلى العامّةِ بلحاظ الأصل الذي انبثقت عنه، فصدور اللحن، ابتداءً عن العامَّةِ هو الذي جعل المصطلحَ يشيعُ، ويُعمَّم للدلالةِ على ما صدر عن الخاصَّة أيضا. إن ظهور اللحن وشيوعه لدى العامة وتسربه إلى بعض الخاصة كان الباعث الأساس للتأليف في اللحن وملاحظةُ ما وقع فيه العامَّةُ من غلطٍ حتى وصل إلى الخاصَّةِ فتداولوه في كلامهم أو تآليفهم.(قدور ، ١٩٩٦: ٥٧– ٥٨) وإلى مثل ذلك ذهب عبد العزيز مطر، الذي يرى أن المعنى المراد من لفظ (الخاصة) الذي ورد ذكره في مؤلفات (كتب اللحن) الشعراءِ والكُتّاب والخطباء وعلماءِ اللغةِ والمثقَّفين، وما عدا هؤلاء من طوائفِ الشعبِ الأُخر يطلق عليهم لفظ (العامة) ووجد أنَّ اصطلاح (لحن العامَّة)يصدق على نوعين:

لحنُ يقعُ من العامّةِ وحدهم، ويُصحِّحه اللغويّون؛ لئلا يقع فيه الخاصّة.

ولحنُ يقعُ من العامّة، ثم يتسرّب إلى الخاصّة، ويُصحِّحه اللغويّون، ويحذِّرون من الوقوع فيه .(مطر :١٩٨١، ٤٨)

وشايعهم في ذلك نعمة رحيم العزَّاويّ الذي ذهب إلى أنَّ الزُّبيديَّ عَنَى بكلمةِ (العامَّة) دلالتها المعروفة ((وقصد الى جمعِ طائفةٍ من أخطاء عامّةِ الناس التي تسرَّبت إلى بعض الخاصّة، أو التي توقّع أنْ ينزلقَ إليها الخاصّةُ من القوم ومثقفوهم)) (الزبيدي ، ١٩٧٥: ٣٥٧).

مما تقدَّم يتَّضحُ أنَّ اصطلاح (لحن العامَّة) الذي ورد ذكرُه في مُصنَّفات اللحن، هو اصطلاحٌ يشملُ كلاً من العامّةِ وهم الناسُ الاعتياديّون، والخاصّة وهم الأدباء والمثقَّفون، وأنَّ تسميةَ لحن الخاصَّةِ بلحن العامَّة، هو من قبيلِ مراعاة الأصل الذي انبثق عنه اللحنُ، وهم العامَّةُ، لأنَّ صدورَ اللحنِ ابتداءً عنهم هو الذي ساعد في شيوع المصطلح، فعمَّم للدلالةِ على ما يصدر عن الخاصّة أيضا، أو هو من باب السخريةِ من الخاصّة، الذين تكلموا بالمرذول من كلام العامة . (مطر ، ١٩٨١، ٢٨)

إن الجهود التي بذلها اللغويون القدماء وسعيهم إلى حماية اللغة وتحصينها من اللحن والفساد من خلال تأليف كتب (لحن العامة) جهود مخلصة وهي موضع تقدير عند علماء اللغة المحدثين، فقد استقرأ اللغويون المادَّة العلميَّة ونظروا في اللغة الفصحى وتتبعوا بكل دقَّة الجزئيات التي وقع فيها اللحن، إلا أن هذه الجهودَ كما يرى محمد عيد لم تُحقِّقْ ما سعتْ إليه، بل أخذ اللحنُ ينتشر على ألسنةِ الناس، حتى إنَّه تسرَّب إلى لغةِ الخاصَّةِ والمثقَّفين، وقد عزا ذلك إلى ((أنَّهم نظروا إليه في ضوءِ القواعد التي اعتبروها مقاييسَ الحكم عليه بالخطأ، فاعتبروه أمراً خطيراً يُهدِّد الفصحى في المعاني والصيغ وتأليف الكلام وإعرابه، لذلك حاربوه بشدَّة، ووقفوا منه موقفَ الشكِّ والإنكار)).(حسان، د.ت: ٤٥) إن هذا الموقف المتشدد من مؤلفي كتب لحن العامة بالنص على ما يجوز وما لا يجوز أشكل عليه علماء اللغة المحدثين وعدوه معاداة لتطور اللغة وفيه مراعاة لجانب القواعد على حساب الاستعمال اللغوي، فمنعوا تطور الفصحى إذ أنهم: ((قاموا فيه بالنصّ على ما يجوزُ ومالا يجوز، فناصبوا تطوُّرَ اللغةِ العداء، و استخدموا في ذلك القواعدَ التي توصَّلوا إليها من قبل، لوضعِ عناصرِ التغيُّرِ في اللغةِ تحت سيطرتها، ثم الحكم عليها بالخطأ، وبذلك لم يُؤدِّ جهدُهم في تقصِّي جزئيات ما أسموه(اللحن) إلى نتائجه المرجوَّةِ في معرفةِ تطوُّرِ الفصحى وتأريخها، لعدمِ اعترافهم بالتطوُّرِ أصلاً، ولمراعاةِ جانبِ القواعدِ لا الاستعمال)). (حسان ، د.ت: ٤٥) (مطر، ١٩٨١، ٤٩)

وقد ألقى كمال بشر باللوم على علماء اللغة القدماء الذين نظروا للتطور الحاصل في اللغة من باب الخطأ الذي يجب إهماله بقوله: ((التطوُّر الذي أصابَ العربيَّةَ حينئذ كما لو كان ضرباً من الخطأ والانحرافِ يجب طرحُه وإهمالُه. وهذا المسلكُ مسلكٌ غيرُ محمود من وجهة النظر العلميَّة، إذ هم بفعلتهم هذه قد أوصدوا أبوابَ البحثِ في وجه الدارسين من بعدهم، وهكذا ظلَّتِ العربيَّةُ تتغيَّرُ وتتطوَّر دون أنْ يُسجَّل هذا التطوُّرُ، أو أنْ يلتفتَ إليه أحدٌ من الدراسين)) . (بشر ،١٩٦٩: ٢-٢٨)

إن علماء اللغة المحدثين ينظرون للخطأ واللحن الذي وقع من القدماء تطورا وتغيرا في اللغة لأن اللغة كما يرى محمد عيد ظاهرة اجتماعية وهي في عرضة للتطور وإن هذا التطوُّر لا يحدثُ بصورة عشوائيَّة، بل تبعا لقوانين لغويّة وإنما ((باستمرار في معانيها وبنيتها، وتراكيبها، ولا تخضعُ طويلاً للقواعد المُنسّقة والنظام الجميل، لأنَّ للغةِ نظامَها الذي يفرضه استعمالُها بين المتكلِّمين بها، وعملُ الباحث اللغويّ ملاحقةُ التطوُّر لا مصادرته، وملاحظته لا تجميده، فإنَّ المصادرةَ والتجميدَ لا يُمكنُ تحققهما بالنسبةِ للغةِ نفسِها، وإنْ أمكنَ ذلك بالنسبةِ لدراستها ومن يدرسونها)). (عيد ،١٩٨١: ٣٧) وإن كان رمضان عبد التواب يرى أنَّ استعمال المحدثين كلمة(التطوُّر) لا يعني تقويم هذا التطوُّر، والحكم عليه بالحسن والقبح؛ لأنَّه لا يعني عندهم أكثر من مرادفٍ لكلمة التغيُّر .(التواب ، ٩٨٣: ٩)

ويبدو لي أن اللحن قد وقع في وقت سابق للعصر الإسلامي وقبل دخول الأعراب في الدين الجديد، فقد أخذ أهل اللغة على النابغة البياني وهو جاهلي قوله:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وأنه لما لم ينتبه إلى خطئه جاؤوا بمغنية مدت الوصل وأشبعته ومطلت واو الوصل فلما شعر بلحنه عرفه وغيره إلى :وبذاك تنعاب الغراب الأسود .(ابن جني ،د.ت:٢٤١).

وقد أخذوا عليه أيضا قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

فعيسى بن عمر يرى أن الوجه أن يقول: السم ناقعا. (ابن سلام ، ١٩٥٤: ١-٦)

ليس هذا فحسب فقد عقد السيوطي في (المزهر) بابا لمعرفة أغلاط العرب ذكر فيه قول النحاس أن زهير بن أبي سلمى – وهو من الذين يحتج بشعرهم والذي قيل عنه أنه أشعر العرب – قد لحن وأخطأ في قوله:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

فزعم أنه يريد كأحمر ثمود فغلط، ولذلك كان ابن فارس يخضع شعر المتقدمين في الجاهلية إلى قواعد العربة وقوانينها فما كان موافقا لها أجازه وما أبته رده لأنهم غير معصومين من الخطأ في نظره ؛ لذلك عد قول قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي :

ألم يأتيك والأنباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد

غلطا وخطأ. (انيس ، ١٩٦٦: ١٠٣) فكان على الشاعر أن يحذف ياء المضارع مع الجزم .

إن هذه الأمثلة وغيرها دليل واضح على وقوع اللحن في وقت متقدم عن العصر الإسلامي ، ففصحاء العربية وشعرائها الذين يفترض ابتعادهم عن اللحن لم يسلموا منه وهو في ظني يرجع لأسباب منها:

أولا: أن اللغة العربية تمتاز بالاتساع وغزارة الألفاظ بسب انتشار القبائل العربية في أطراف مترامية فكانت لكل قبيلة لغتها الخاصة حتى قيل: ((ما لسان حمير وأفاصي اليمن بلساننا، ولا عربيته بعربيتنا)) .(السيوطي،د.ت: ٢-٤٩٨) فالحميريون يقولون للرجل (ثب) أي: اجلس، في حين أن الوثب في لغة نزار(الطمر) (ابن سلام ،١٩٥٤: ١-١١) والحجازي يقول: استحيي بياءين ، والتميمي يقل: استحي بياء واحدة. (الدراجي ،٢٠٠٠: ٩).

ثانيا: إن تحديد اللغة الأفصح لم يتفق عليه أهل اللغة ، فمنه من يرى أن لهجة قريش هي الأفصح ، وبعضهم يرى أن لهجة هوازن وسفلى تميم هي الفصحى ، ويراها بعضهم في لغات شتى .(السراج ، ٢٠٠٦: ٢٩).

ثالثا: إن القاعدة الي اعتمد عليها اللغويون عند جمع اللغة بأنهم اعتمدوا في جمعها على القبائل التي لم تختلط بغيرها التي وصفوهم (بحرشة الضباب وأكلة اليرابيع) وعدم إجازة غيرهم كانت السبب الرئيس في بروز ظاهرة اللحن ،وإلا كيف يؤاخذ اللغويون على بني أسد قولهم: (سكرانة) وهم من أفصح العرب. (المبرد ، د.ت:٣-٣٣٥).

ويظهر عندي أن اللغة حتى في القبائل التي لم تتصل بغيرها كانت على مستويين، الأول: خاص بالعامة وهي لغة التخاطب اليومية بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد- القبيلة الواحدة- ، وثانيها: لغة مثقفي القبيلة وشعرائها وهي لغة النخبة التي كانت للشاعر فيها مكانة مهمة.

إن اللغات المشتركة تشتمل على مستويين من مستويات الأداء اللغوي في أي عصر من العصور ، مستوى اللغة الفصحى ، وهو مستوى عام يلجأ إليه المتكلم في مواقف محدودة، ومستوى اللهجة المحلية التي تكتسب من المحيط اللغوي الذي يعيش فيه الأفراد ، ففي الأول وبسبب عدم الاستعمال يكون الخطأ من دون شعور المتكلم بذلك ، أما في الثاني لا يخطأ المتكلم، وإذا أخطأ ولحن لسانه أدرك ذلك الخطأ وبادر إلى تصويبه؛ لأنه اكتسب لغته من البيئة المحيطة به، ولذلك فالعصر الجاهلي كغيره من العصور والخطأ واللحن وارد في جميع اللغات ولا يقتصر على لغة بذاتها.

المصادر

- إبراهيم، محمد أبو الفضل (١٩٧٧). تحقيق، ديوان النابغة الذبياني،زياد بن معاوية، ،دار المعارف مصر.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان .(ت٣٩٢هـ). الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، د.ت.
- ابن سلام الجمحيّ، محمد (١٩٧٤م). طبقات فحول الشعراء ، (ت٢٣١هـ)، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
- ابن فارس، أبو الحسين. أحمد .(١٩٧٢م). مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٣٧٤هـ ،١٩٥٥م). لسان العرب، (ت٧١١هـ)،دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
- ابن يزيد، أبو العباس. محمد. (ت ٢٨٥ هـ) المبرد المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة،عالم الكتب،بيروت، د.ت.
- الأنباريّ ،أبو البركات أسرار العربيّة (ت٥٧٧)،عُنِيَ بتحقيقه محمد بهجة البيطار ،مطبوعات المجمع العلميّ العربيّ بدمشق ،د،ت.

- أنيس ، الدكتور إبراهيم (١٩٦٠م). مستقبل اللغة العربيّة المشتركة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العاليّة.
- _____ –، الدكتور إبراهيم .(١٩٦٦م). من أسرار اللغة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة.
- باي ، ماريو (١٩٧٢م).أُسس علم اللغة ، ترجمة: الدكتور أحمد مختار عمر، جامعة طرابلس.
- بشر ،كمال. الدكتور محمد (١٩٦٩م) . دراسات في علم اللغة، ، دار المعارف بمصر.
- البطليوسيّ ،أبومحمد .بن السيد (١٩٨١م).الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، (ت٥٢١ هـ) ، تحقيق الأُستاذ مصطفى السقا، والدكتور حامد عبد المجيد ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة .
- جاسم، رحيم. مهند. (٢٠٠٣ م). "السماع عند النحاة في ضوء علم اللغة الحديث" ، رسالة ماجستير، جامعة القادسية، كلية الآداب .
- جسبرسن، أُوتو. اللغة بين الفرد والمجتمع ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب، مكتبة الأنجلو المصريّة،د،ت.
- حسّان ،الدكتور. تمّام اللغة بين المعياريّة والوصفيّة، ، دار الثقافة – المغرب، د.ت.
- حسن، غالب .علي. (٢٠٠٦)." ابن السراج وخلافه النحوي مع البصريين والكوفيين"، ،رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب.
- الدراجي ، كاطع .جار الله سطام. (٢٠٠٠)."الخلاف الصرفي في ألفاظ القرآن الكريم"، ،إطروحة دكتوراه، كليةالتربية، ابن رشد، جامعة بغداد.
- الرافعيّ ، مصطفى. صادق. (١٩٧٤م). تأريخ آداب العرب. الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربيّ، بيروت ، لبنان.
- الزُّبيديّ، أبو بكر محمد (١٩٦٤م).لحن العوام ، (ت٣٧٩هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم الدكتور رمضان عبد التواب ، الطبعة الأُولى، المطبعة الكماليّة ، القاهرة.
- _____ –، أبو بكر (١٩٥٤م). طبقات النحويين واللغويين (ت٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأُولى، وقف على طبعه محمد الخانجي، مصر.
- السيوطيّ ،جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه، وضبطه، وصححه، وعنون موضوعاته، وعلّق حواشيه، محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- _____ –، جلال الدين (١٩٩٨م). الاقتراح في علم أُصول النحو ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعيّ، الطبعة الأُولى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.

– الصالح، الدكتور صبحي (١٩٧٨م). دراسات في فقه اللغة، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت.

– الطباع، عمر. فاروق. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د.ت.

– عبد التواب، الدكتور رمضان (١٩٨٣م). التطوّر اللغويّ مظاهره، وعلله، وقوانينه ، ، الطبعة الأُولى ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ودار الر فاعيّ بالرياض.

_____ –.(١٩٨٣م). فصول في فقه العربيّة، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ودار الرفاعيّ بالرياض.

– العزّاويّ ،الدكتورنعمة.رحيم.(٢٠٠١م). مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة ، مطبعة المجمع العلميّ.

_____ –(١٩٧٥م). أبو بكر الزُّبيديّ الأندلسيّ وآثاره في النحو واللغة، الطبعة الأُولى، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

– العسكريّ ،أبو هلال (٢٠٠٣م).الفروق اللغويّة، (ت نحو ٤٠٠هـ)،الطبعة الثانية ، علّق عليه ووضع حواشيه محمد باسل عيون السود، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت .لبنان،١٤٢٤هـ .

– عمايرة، الدكتور إسماعيل .(٢٠٠٢م). المستشرقون والمناهج اللغويّة ، الطبعة الثالثة، دار وائل للنشر، عمان . الأردن.

– عون، الدكتور حسن (١٩٥٢م). اللغة والنحو– دراسات تأريخيّة وتحليليّة ومقارنة– الطبعة الأُولى، مطبعة رويال، الإسكندريَّة.

– عيد، الدكتور محمد (١٩٨٠م). المظاهر الطارئة على الفصحى، عالم الكتب، القاهرة.

, _____ –الدكتور محمد. المستوى اللغويّ للفصحى واللهجات وللنثر والشعر ، ، عالم الكتب، القاهرة، د.ت.

– فندريس ج. اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصريَّة، د.ت.

– قدّور ،الدكتور أحمد .محمد .(١٩٩٦م). مُصنَّفات اللحن والتثقيف اللغويّ حتى القرن العاشر الهجريّ، ، الطبعة الأُولى، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

– مطر ، عبد العزيز.(١٩٨١م) .لحن العامة في ضوء الدراسات اللغويّة الحديثة، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

– مطلق ،ألبير. حبيب (١٩٦٧م). الحركة اللغويّة في الأندلس، منذ الفتح العربيّ وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف، ، المكتبة العصريّة، صيدا– بيروت.